الخلاف المفهوميّ في تسمية المصطلح التراثيّ
(المصطلح النحويّ الكوفيّ أنموذجاً)

أ. م . د هناء عبد الرضا الربيعي
م. هادي خلف القرناوي
جامعة البصرة
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

تقديم:

إنّ الخلاف المفهوميّ للمصطلحات في النحو عامّة والنحو الكوفيّ خاصّة هو الذي أوصلها إلى أن تحدث فيما بين تسمياتها أو مفاهيم هذه التسميات علاقات مختلفة، ولكنها في كلّ صورها هي شكل للخلاف في أحّد جزئيّاته، فقد تظهر هذه العلاقات بصورة ترادف مصطلحيّ يحدث بين المصطلحات ذات التسميات المختلفة والمفاهيم الموحّدة، أو بصورة مشترك مصطلحيّ يحدث بين المصطلحات المتشابهة في التسمية المختلفة في المفهوم، هذه العلاقات ما كانت لتحدث لو كان المصطلح مستقرّاً في جانبيّ دلالة (التسمية، والمفهوم)، ويمكن أن نقول أنّ الخلاف المفهوميّ لم يكن مقتصراً على المدرسة الكوفيّة وإنّما كان شاملاً لكلّ النحو عبر نشأته وصولاً إلى استقرار مصطلحاته، ولكنّه تركّز بشكل أكثر وضوحاً كظاهرة ملموسة عند النظر إلى المصطلح النحوي الكوفيّ.

ويرجع الخلاف المفهوميّ في هذا البحث إلى كون تسميات المصطلحات التي تندرج تحت هذه الظاهرة متعدّدة بينما مفاهيمها واحدة، وهذه الظاهرة المصطلحيّة تتقارب كثيراً مع ظاهرة الترادف اللفظيّ التي ألفها العلماء القدماء العرب، وسنمهّد للحديث عن الترادف المصطلحيّ بالماحة سريعة عن الترادف اللفظيّ كي نتوضّح مفهومه قبل الدخول في تطبيقه مصطلحيّاً على النحو الكوفيّ.

الترادف في اللغة يعني التتابع، وشيء يلحق بشيء أي يتبعه[١]، أمّا في الاصطلاح فهو **((ما كان معناه واحداً وأسماؤه كثيرة، وهو ضدّ المشترك، أخذ من الترادف الذي هو ركوب أحد خلف أحد))**[٢]،

وقيل: ((**هو الألفاظ المفردة الدالّة على شيء واحد باعتبار واحد**))[٣]، فهو دلالة عدّة كلمات مختلفة ومنفردة على المسمّى الواحد أو المعنى الواحد، و((**الكلمات المترادفة هي الكلمات التي تنتمي إلى نفس النوع الكلاميّ (أسماء – أفعال) ويمكن أن تتبادل في الموقع دون تغيير المعنى أو التركيب النحويّ للجملة**))[٤].

وهذه الظاهرة اللغويّة كان مفهومها معروفاً عند النحاة العرب، بل ذكروها في كتبهم، فسيبويه مثلاً يتحدّث عن هذه الظاهرة عند العرب بقوله: ((**اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، واختلاف اللفظ والمعنى واحد... قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة وأشباه هذا كثير**))[٥]، فقول سيبويه يبيّن وجود الترادف، إذ إنّه معروف عند القدماء، وهم ملتفتون إليه، فقول سيبويه: (**اختلاف اللفظ والمعنى واحد**) دليل على معرفة مفهوم الترادف قبل تلك الحقبة وما بعدها لاستقرار مفهومه آنذاك.

وممّن توسّع في الحديث عن الترادف اللغويّ في مؤلّفاتهم النحويّة[٦] محمد بن القاسم الأنباري الكوفي، إذ قال: ((**وأكثر كلامهم يأتي على ضربين آخرين: أحدهما أن يقع اللفظان المختلفان على المعنيين المختلفين؛ كقولك: الرجل والمرأة، والجمل والناقة، واليوم والليلة، وقام وقعد، وتكلّم وسكت؛ وهذا هو الكثير الذي لا يحاط به، والضرب الآخر أن يقع اللفظان المختلفان على المعنى الواحد، كقولك: البرّ والحنطة، والعير والحمار، والذئب والسيد، وجلس وقعد، وذهب ومضى**))[٧].

ومن منطلق مفهوم الترادف اللغويّ نجد أنّ فكرة الترادف في اللفظ انتقلت لتشمل المفاهيم أيضاً ولكن في ضوء علم النحو، ومن هنا يحصل الاطمئنان أنّ الكوفيّين عندما أطلقوا مصطلحاتهم النحويّة كانوا على دراية كاملة بما ألفه العرب وبما تعارفوا عليه؛ ليوظفّوه في أصول مدرستهم، ولكن من دون تسميتة بالترادف؛ لأنّ المفهوم واحد في كلّ لغة ولكن تبقى خصوصيّته متغيّرة تبعاً للعلم الذي ترد فيه، وللوقوف على هذه الظاهرة سنقف عند مجموعة من المصطلحات الكوفيّة التي جسّدت مفهوم الترادف؛ لنبيّن من خلالها أنّ تسميات المصطلحات قد تتعدّد لتدلّ على مفهوم واحد، فتكون مفاهيم بتسميات ثنائيّة، أو ثلاثيّة، أو رباعيّة، أو أكثر من ذلك.